

الشك الديكارتي

مقدمة:

من تقسيمات الفلسفة نجد الفلسفة القديمة محورها انشغال الإنسان بمحاولة فهم الطبيعة مع أرسطو، والوسيط؛ ومحورها التوفيق بين الوحي والفلسفة وتتلخص في ما قاله ابن رشد في (فصل المقال ...)، والحديثة؛ محورها فهم الذات وكيف تفسر التفكير مع ديكارت (1596-1650)، الذي اهتم بالعلوم الرياضية والبصريات غير أنه ترك أثرا فلسفيا امتد لمدى قرون.

لمحة عن حياة ديكارت ...

ولد ديكارت في 31 مارس عام 1596 م في مدينة لاهاي إن تورين ينتمي ديكارت إلى أسرة من صغار النبلاء، التحق ديكارت سنة 1604 بمدرسة La Fliche، المنتمية إلى طائفة اليسوعية.

تطوع سنة 1618 للخدمة في الجيش الهولندي، وعاد سنة 1622 إلى فرنسا لتصفية ما ورثه عن أبيه ويستثمر الأموال في تجارة السندات المالية أمنت له دخلا مريحا. وفي الفترة بين 1628 م و1649 م عاش ديكارت حياة علمية هادئة في هولندا، وألف فيها معظم مؤلفاته، والتي أحدثت ثورة في مجالي الرياضيات والفلسفة. ذهب إلى ألمانيا سنة 1619، حيث اكتشف الهندسة التحليلية التي اشتهر بها كعالم رياضيات، وأسس قواعد منهجه الفلسفي. أخرج ثلاث رسائل تدور كلها حول الموضوعات الرياضية والطبيعية، قدّم لها بمقال صغير وهو «مقال عن المنهج» سنة 1636 ولم يكتب اسمه على غلاف. كتابه خوفا من بطش الكنيسة. أصيب بالتهاب رئوي في مدينة ستوكهولم، رفض نصائح الأطباء وآثر أن يعالج نفسه بنفسه، توفي في 11 فبراير عام 1650.

أسس ديكارت للمحاولة الأولى للخروج من الذات الجماعية المقلدة إلى الذات الفردية، إذ بدأ العلم يثبت قدمه في الواقع بما ظهر من اكتشافات (كوبرنيكس وجاليليو وكبلر ...) في خضم تضارب الأفكار الفلسفية الميتافيزيقية وظهر مدرسة الشكاك (Montaigne) الذين كانوا ينفون إمكانية المعرفة جملة وتفصيلا وقالوا باستحالة المعرفة.

الشك المنهجي:

الحواس تخدعنا (جزاء الكاذب ألا يصدّق وإن قال الحق)، ومعضلة الفيلسوف الصيني (حلم الفراشة في حقيقة الإنسان أم حلم الإنسان في حقيقة الإنسان). يقول ديكارت «كوني أشك يعني أنني أفكر وما دمت أفكر فدلّيل وجودي هو عملية التفكير التي أمارسها. التفكير ليس فعلا جسديا

كالمشي والنوم والأكل، والتفكير ليس إنتاجا ماديا ملموسا. الحب والكراهية والرفض والقبول كلها ليست مادية... أنا إذن نفس مفكّرة وواعية.

إن كنتُ فعلا موجودا فلماذا شككت؟ هل أنا كامل الوجود؟ لو كنت كامل الوجود لما شككت إذن أنا ناقص ولا يمكن أن أكون أنا من أوجدت نفسي. من هنا أصبح الفرد منطلقا لفعالية التفكير... الله موجود وهو الكمال المطلق، وهو لا يمكن أن يخدعني أو يوهمني. النور الطبيعي للنفس أو للعقل مصدره الله الكامل، ولذلك أستطيع أن أثق بعقلي (بنفسي) في طريق التمييز بين ما هو حقيقي وما ليس كذلك».

الله هو الضامن الوحيد للمعرفة القائمة على الحدس والبرهان. وما نفع فيه من أخطاء ناتج عن خداع حواسنا وأهوائنا.

إثبات الذات المفكّرة : أنا أفكّر إذن أنا موجود فكرة واضحة ومتميّزة. والمعرفة الموجودة خارج الذات تحتاج إلى إثبات. وهذا ما دعا ديكارت إلى تأسيس منهج على قواعد.

قواعد المنهج :

- 1- البداهة : حيث لا تحتاج القضية إلى برهان
 - 2- التحليل: تجزئة المشكلة إلى أولياتها
 - 3- التركيب : بناء الفكرة من الأوليات البسيطة
 - 4- الإحصاء الشامل أو الاستقراء لتفادي إغفال أي جزء من موضوع البحث.
- يجب أن تكون المعرفة يقينية تقاس بمعيار عقلي لتمحيص المعرفة الحسية. من وجهة نظر أخلاقية؛ 1628 ظهر ديكارت بصورة رواقية باجتنابه مخالطة الناس.
- أطروحة ثنائية النفس والجسد المستقلان عن بعضهما :

- وجود النفس وهي كليّة، (non extensible) غير قابلة للامتداد، وغير قابلة للتجزئة .
 - الجسد الممتد (extensible) طبيعته مادية وهو قابل للتجزئة.
- إن نقص عضو من الجسد هل يغيّر شيئا من ممارستنا للتفكير والشك؟
- حاول ديكارت أن يرفع الفلسفة إلى مكانة العلم في يقينيته، غير أنه فشل كما فشل الكثير من الفلاسفة كـ **E.Kant** في هذا الاتجاه لأن العلم تصدّر المجال المعرفي فعمزت الفلسفة عن مواكبة العلم في مناهجه وفي نتائجه.

يطرح هنا سؤال حول ما قام به ديكارت بمسح الطاولة للانطلاق من الشك إلى اليقين، ورفض كل ما لم يكن بديهياً، ثم جاء بفكرة أن الله ضامن ليقين المعرفة. هل كان ذلك درعا اتقى به ديكارت بطش الكنيسة؟

كخلاصة يمكننا أن نحمل الؤل في أنه قد نجح كانت في إثبات جدوى منهجه .

منهج شك الغزالي: 1058- 1111

«إنما مطلوب العلم بحقيقة الأمور فلا بد من طلب حقيقة العلم، ماهي؟» كان قلقا بسبب ما كان حوله من تيارات مختلطة. وشك بالعقائد الدينية الموروثة. وانتقد المغالين من الصوفية «من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى». شك بالحواس باعتبارها تخدع والمعارف الحسية عارية من اليقين، وبالعقل الفلسفي الذي يقوم على الاستدلال، «أثبت لنا العقل أن المحسوسات ليست يقينية، من يضمن أن العقل نفسه يخدعنا؟» .

الشك بالحياة الشعورية: الحلم واليقظة.

يقول ديكارت : ليست هناك علامة تميّز بين اليقظة والنمّام. فكل العلوم الطبيعية محل شك باستثناء الرياضيات بها يقين لا يمكن الشك فيه.

وقد حاولنا؛ زملائي وأنا، أن نقرب صورة الشك الديكارتي بإيجاز في شكل مسرحي من

مشهدين كالتالي:

تشخيص صوتي:

● الضمير الأستاذ سهيل كريم

● ديكارت محمد المختار زادني

المشهد الأول

أنا أفكر إذن أنا موجود

ديكارت: (يخاطب نفسه في همس يكاد لا يسمع) يوووو ، أي جنون هذا؟ أما يفتر هذا الصدى المتردد، يشئت أفكارى ويطاردها بل يطردها ويعاود يللمها حول دوامة لا متناهية... أوليس يوجد مكان ما يخلو من الخدع والأوهام؟

الضمير:(يقصد ديكارت) : رنيه ! رنيه !... يا سير رنيه، امدد بصرك في هذا المشهد الجميل : شمس دافئة بعد توقف المطر، بساط الأرض الأخضر، وهناك ...

ديكارت: دعني وشأني أرجوك ... أين ذاك هناك؟

الضمير: : من النافذة ، هناك صوب المرتفع. ألا ترى قوس ألوان قزح؟

ديكارت: مرة أخرى تريدني أن أعود إلى وهم الألوان ؟ إيبه وهل تلك الألوان موجودة بالفعل؟
الضمير: : إن عيناك تراها ألوانا ياسير رنيه.

ديكارت: تراها عيناى نعم. لكن هل هي موجودة في تلك الرايبة الخضراء؟ كم مرة سرت ذاك الطريق لأقترب لأجدها أقرب فأقرب، لكنها تحتفظ بالمسافة بيني وبينها... ثم لماذا هي تتراءى دائما جهة الغرب الشمالي في مثل هذا الوقت من النهار وما تلبث أن تتلاشى في السماء؟

الضمير: : أظن أنك لا تصدق عينيك يا سير رنيه...

ديكارت: بل أصدق عقلي في حساب جيوب الزوايا التي تنحرف بها حزم الضوء . وإن ما تراه عيناى مجرد وهم.

الضمير: : هل ستبترأ من تفاسيرك الرياضية لما تعلمت عن انكسار الضوء، أم لا زلت تشك في صدقها؟

ديكارت: أعد أعد ما قلت...

الضمير: : ألدك شك في تفاسيرك الرياضية؟

ديكارت: قلت شك، ياه ! هذان الحرفان لازماني منذ زمن وكم سببا لي أرقا وحيرة.

الضمير: : قل لي، أما زلت تشكّ في كل ما حولك؟

ديكارت: أجل ولكن، أعتقد أنني سأهتدي إلى ... إلى ... إلى سبيل يقودني لليقين.

الضمير: : كيف ذلك وأنت لا تطمئن لعينيك ؟

ديكارت: عيناى تخدعان عقلي ولست واثقا من صدقهما في ما تنقلان من خبر الألوان ولا حتى عن السراب الذي يتصورانه ماء! وما هو بالماء. فالسراب وهم كالألوان التي نتوهم وجودها على الربوة.

الضمير: : أتريد أن تقول لي إنك لم تتأكد بعد من أي شيء إطلاقا؟

ديكارت: تأكدت من شيء واحد هو أنني أشكّ

الضمير: : إذن أنت تعمل عقلك

ديكارت: أوليس الشكّ دليلا على إعمال العقل؟

الضمير: : بالتأكيد.

ديكارت: وماذا نسمي إعمال العقل أليس فعلا؟

الضمير: : مम्म نعم! هو كما قلت.

ديكارت: كيف يمكن للفعل أن يصدر عن -غير موجود-؟

الضمير: : لا يصدر الفعل إلا عن موجود وهذا أمرٌ مؤكّد

ديكارت: ثم ماذا نسمي إعمال العقل، أليس هو التفكير؟

الضمير: : أكيد هو تفكير

ديكارت: وأخيرا وجدتها

الضمير: : ما الذي وجدته؟

ديكارت: أنا أشكّ إذن أنا أعمل عقلي أي أنا أفكر

الضمير: : هذا صحيح

ديكارت: وما دام التفكير لا يصدر إلا عن موجود فأنا فعلا موجود.

المشهد الثاني

مقال في المنهج

الضمير : وماذا بعد؟

ديكارت: أنا موجود يعني أن وجودي فعلٌ مُوجد، وهذا الموجد هو الضامن ليقيني

بوجودي...

الضمير : ألا تخشى أن يخدعك؟

ديكارت: لا ! لأنه ليست له غاية بخداعي ولا يمكن أن يخدعني لأنه هو من أوجدني.

الضمير : ومن تراه يكون هذا الذي أوجدك؟

ديكارت: هو من أوجد كل الكائنات الأخرى

الضمير : ماذا تعني بالكائنات الأخرى؟

ديكارت: التراب، النباتات، الأشجار، الماء، الحجر، الحشرات، الحيوانات، الطيور، الإنسان،

الأرض، الشمس، وكل الكواكب...

الضمير : ولم لم تقل الضوء والألوان والحركة...؟

ديكارت: تلك مظاهر بها تخدعني حواسي.

الضمير : جميل. لكن أخبرني كيف أعرف أن هذه المعرفة يقينية

ديكارت: الله هو الضامن الوحيد للمعرفة القائمة على الحدس والبرهان. وما نفع فيه من

أخطاء إنما ينتج عن خداع حواسنا وأهوائنا.

الضمير : وكيف تيقنت؟

ديكارت: كوني أشك يعني أنني أفكر. وما دمت أفكر فدليل وجودي هو عملية التفكير التي

أمارسها. والتفكير ليس فعلا جسديا كالمشي والنوم والأكل، وليس إنتاجا ماديا ملموسا.

فالحب والكرهية والرفض والقبول كلها ليست مادية... أنا إذن نفس مفكرة وواعية. أنا فعلا

موجود لكوني شككتُ.

الضمير : إن وافقتك على كل هذا، فهل أنت كامل الوجود؟

ديكارت: لا ! لأنني لو كنت كامل الوجود لما شككت إذن أنا ناقص ولا يمكن أن أكون أنا من أوجدت نفسي.

الضمير: إن سلّمت معك بأن هذه المعرفة نور طبيعي لامس عقلك فما يكون مصدر هذا النور؟

ديكارت: النور الطبيعي للنفس أو للعقل مصدره الله الكامل، ولذلك أستطيع أن أثق بعقلي في طريق التمييز بين ما هو حقيقي وما ليس كذلك.

الضمير: دعني أذكرك بما قلت لي «إنك تفكر فأنت إذن موجود»؛ فكرة واضحة ومتميّزة، كمعرفة موجودة داخل ذاتك. ما بال المعرفة التي تكون خارج الذات ؟
ديكارت: المعرفة الموجودة خارج ذاتي تحتاج إلى إثبات.

الضمير: وكيف ذلك؟ هل من شروط يجب توفّرها في تلك المعرفة تؤدي إلى إثباتها؟
ديكارت: يجب أن تكون المعرفة يقينية تقاس بمعيار عقلي لتمحيص المعرفة الحسية. وذلك باحترام أربع قواعد.

الضمير: وما تلك القواعد؟
ديكارت:

1. التسليم فقط بيقينية المبادئ، التي تبدو للعقل بديهية، لا يشير اليقين منها أي شك.
2. تقسيم كل مشكلة إلى أجزاءها.
3. الانتقال المنظم من المعروف والمبرهن عليه ، إلى المجهول الذي يتطلب البرهان.
4. عدم إغفال أي من مراحل البحث المنطقية.

الضمير: حسنا. وماذا عن الإنسان؟

ديكارت: الإنسان مكوّن من عنصرين: جسد مادي - ممتد- وقابل للتجزئ إن بتر أحد أطرافه لا تُعطل الحياة. والعنصر الثاني غير مادي وغير ممتد ولا يقبل التجزئ وهو الروح أو النفس.